

# الطريق إلى المغرب<sup>(١)</sup>

## قراءة في الاستشراق<sup>(٢)</sup>

بقلم: ألبرت حوراني  
ترجمة: عبد النبي مصطفى

ان موضوع هذا الكتاب القوي المقلقل هو الطريقة التي تخلق بها التقاليد الفكرية وتنقل . انها - كما يحاج ادوارد سعيد - لا تنهض ببساطة في عزلة من عقل المفكر أو الباحث . ولربما يحاول « الباحث أن يصل الى مستوى من الحرية النسبية من الواقع اليومي والمر » ولكنه لن يستطيع أن يهرب أو يتجاهل تماما « ارتباطه كموضوع انساني بظروفه المحيطة » .

... ان الامكانيات من أجل عمل مائل في الثقافة هي بالنسبة الى عقل عظيم واصيل غير محدودة اطلاقا . فعمل السابقين ، والحياة المؤسسية للحقل الدراسي ، والطبيعة الجماعية لاية منشأة تعليمية ، كل هذه - فضلا عن الحديث عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية- تميل الى الحد من تأثيرات نتاج الباحث الفرد . ان حقلا كالاستشراق له ذات تراكمية ونقابية ... وقد كانت النتيجة اجماعا معينا : اشياء معينة ، انواعا معينة من البيانات ، وانواعا معينة من العمل بدت للمستشرقين انها صحيحة » .

ان « الاستشراق » هو المثال الذي يستخدمه سعيد ليوضح موضوعه ، وهو يعني به شيئا دقيقا : الباحث الذي يدرس الشرق ( وبالتحديد الشرق المسلم ) ؛ والكاتب الخيالي الذي يتخذ موضوعا له ؛ والمؤسسات المعنية « بتعليمه ، وتهذيبه ، وحكمه » ، كلهم يشتركون في اشياء : تمثيل معين له ، أو فكرة أن « الشرق » يعرف بأنه غير « الغرب » ، غامض ، غير متغير ، وفي النهاية ، أدنى منزلة .

Albert Hourani,

« The Road to Morocco », The New York Review, March 8, 1979, PP. 27-30.

Edward Said,

Orientalism, Routledge & Kegan Paul, London, 1978, 368 PP.

١ - انظر

٢ - انظر

ان تمثيل الشرق هذا قد خلقه العقل الغربي بحرية تامة نسبيا ، لأن الشرق كقوة - شعُر بها وتم اختيارها بصدق - غائبة تماما عن الثقافة الغربية تقريبا . فقد طورت وحفظت بنوع من الشراكة الضمنية بين الباحثين والكتاب وبين أولئك الذين ظفروا بالامبراطوريات وحكموها . وكان الباحثون والكتاب على وعي بالقوة الغربية كحقيقة مطلقة في شرق سلبي لا حول له ينتظر أن يحكم ويحتكر ، وقد استنتج الحكام مسوغات أخلاقية وبالتالي نوعا من القوة من الفكرة الغربية عن الشرق . وقد تمت الوساطة في هذه الشراكة عن طريق المؤسسات - طرق رسمية معنية للتعليم والكتابة - التي حددت ماذا يمكن أن يدرس أو يقال عن الشرق .

وطريقة التفكير التراكمية هذه عن الشرق ، والتصرف تجاهه ، هي ما يدعوه ادوارد سعيد بالاستشراق . وبالطبع فان أي نوع من الفكر يقتضي اقامة التمييزات ، وتقييم الحدود ، ولكن هذا النوع من التحديد في رأيه هو الذي كان ضارا بشكل خاص . وربما قام بدور الحافز للخيال الأوربي ، وساعد على تشكيل الحس الغربي بالهوية ، ولكنه ما دام قد اعتمد في النهاية على اختلافات دينية وثقافية ، فانه قاد الى سوء فهم للعمليات التاريخية . لقد جعل أمر رؤية الشرقيين ككائنات بشرية فردية أمرا غير ممكن ، ما دامت ذواتهم قد استغرقت بفكرة « المسلم » « العربي » أو « الشرقي » ، وأدت - كجميع المقابلات الثنائية البسيطة لـ « نحن » و « هم » - الى اثاره محاكمات قيمة أخلاقية . ان الشرق يرى غريبا ، بعيدا ، مؤذيا ميتاما لم نُعد اليه الحياة ، وماوى « للهولات والشرور والارهاب والمسرات والرغبات » .

ويجد السيد سعيد نواة هذه الرؤية للشرق في المواجهات الأولى لأوروبا الغربية مع الاسلام . فالصراع من أجل التحكم بحوض المتوسط سبب صدمة نفسية متكررة للعقل الأوربي ، لا يمكن التحكم بها الا من خلال محاولة شرح الاسلام بكلمات مألوفة ، كوحى كاذب ، أو بدعة مسيحية . وعندئذ ، وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر، عُلِمَت بنى الفكر الموروثة عن الماضي ، وأعيد توزيعها وأصلحت ، وتحت تأثير النوع الجديد من الفضول الفكري وتوسع القوة الأوربية تم تحويل صورة العدو المسلم الى الصورة الحديثة للشرقي . عندها ظهر أوائل المستشرقين المحدثين : الفرنسي Anquetil-Duperron الذي اكتشف النصوص الأvestan texts وترجمها ، والانكليزي السير ويليام جونز Sir William Jones الذي ترجم الشعر السنسكريتي ، والقوانين الهندية ، والذي كان متمكنا لتوه من العربية والعبرية والفارسية قبل أن يغادر انكلترا الى الهند عام ١٧٨٣ . وقد كان جونز هاما على نحو خاص ، لأن مهنته كانت وثيقة الصلة بالدور الأول والفعال والدائم للأوربيين في مجتمع شرقي : مجتمع شركة الهند الشرقية في البنغال . وفي حياته وآثاره تغدو الصلة بين السيطرة السياسية والحاجة الى الفهم جلية .

وبعد جيل جاء غزو أوربي لقلب الشرق المسلم . ان الاحتلال الفرنسي لمصر عام ١٧٩٨ لم يكن حادثا من حوادث حروب الثورة فقط ، ولكنه كان حركة من حركات الخيال أيضا ؛

فقد قرأ بونابرت كتاب الكونت دوفولني Comte de Volney « رحلة في مصر وسورية » Voyage en Egypte et en Syrie وكتابات أخرى عن مصر ، وساعده ذلك على تكوين تصرفاته هناك : لقد كان على وعي بأن أربعين قرنا كانت تزدرية وجنوده معا : ظن في نفسه أنه أتى ليعيد الحياة الى عالم ميت • وقد قام الباحثون والعلماء الذين صاحبوه بأول عملية تخصيص لمجتمع وثقافة شرقيين •

وربما أفادت الحملة الفرنسية « الجغرافية الخيالية » أكثر مما أفادت مصر الحقيقية • فتمثيل الشرق فكريا وخياليا ، والسيطرة عليه وإعادة الحياة اليه ، كل هذه المساعي ما كانت الا لتخلق « حقل » المستشرق خلال السبعين سنة - أو ما يقاربها - التي تلت • لقد اكتشف الباحثون النصوص وحققوها واقتطفوا منها ، وترجموها ، وفسروها : في البداية كجهد فردي • وبعد ذلك قنن عملهم وتجسد في مؤسسات وتقاليده • والسيد سعيد معني أساسا باثنين من هذه التقاليد : التقليد الفرنسي الذي يبدأ بـ س ، دو ساسي Silvestre de Sacy صاحب كتب في النحو ، ومختارات عربية ؛ والتقليد الانكليزي الذي يرجع الى ادوارد ويليام لين Edward William Lane المعجمي ومترجم الليالي العربية ، ومؤلف كتاب لا يزال مقروءا على نحو واسع هو : « وصف لسلوك المصريين المحدثين وعاداتهم » An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptian

وقد أغني هذان التقليدان بأفكار مستمدة من ثقافة العصر العامة • وادوارد سعيد محق في تأكيده على فقه اللغة ، وخاصة على ارنست رينان ، الذي طبق مناهجه في دراسة اللغات السامية • لقد كان فقه اللغة أحد الدراسات الأساسية في القرن التاسع عشر ، بل كاد يكون ديانة معلمة • وقد دعاها رينان « العلم الدقيق لموضوعات عقلية » • ويبدو أنها تقدم طريقة لا لفهم اللغات فحسب وانما لفهم طبيعة الجنس البشري وتاريخه أيضا • وبإعادة اللغات الى جذورها ، استطاعت فرزها الى أسر ، واقتُرحت أن أسر اللغات يمكن أن تكون أسرا للذوات التي تعبر باللغة عن نفسها أيضا : الديانات والأساطير ، الثقافات والعروق •

ويمكن ترتيب اللغات ضمن العائلة نفسها في نظام أجيال • وهكذا فان تصنيف اللغات والثقافات يمكن أن يؤدي الى تأريخها ، والى تاريخ انساني صرف لا تلعب فيه الميافيزياء أي دور • ولكن السيد سعيد يؤكد أن فقه اللغة نفسه - كما استخدم في الحقل الاستشراقي - كان مقصورا على الاطار الاستشراقي ، وكان يستخدم ليعطي قاعدة علمية للقضاء الثنائي الموجود لتوه • ان اللغات السامية بالنسبة الى رينان هي أساسا أدنى من اللغات الآرية ، وغير قادرة على تجاوز نقطة معينة في تطورها : « اننا نرفض بأن نسلم بأن اللغات السامية القدرة على تجديد أنفسها » • ويقترح السيد سعيد في فقرة رائعة على نحو خاص أن هذه الفكرة أتت من تطبيق أفكار معينة ، كانت سائدة في علم التشريح في ذلك العصر ، على فقه اللغة : ان الساميات بالنسبة الى رينان هي ما كان بالنسبة الى اتيان سانت ايلير Etienne Saint-Hilaire مسخا تشريحيًا، ليست استثناء بل هي شذوذ ، أو ظاهرة ذات تطور مغط أو مقيد •

وقد سارت عملية الاكتشاف جنباً الى جنب مع عملية التفحص العلمي . وذهب بعض الرحالة الى الشرق كباحثين - مثل لين Lane - لجمع المواد ، ومضى بعضهم - كشاتوبريان Chateaubriand - ليكتشف ذاته أو يقبض عليها ، وذهب آخرون - كبرتن Burton - لخليط من الدوافع . وفي تحليل دقيق ليس فقط لما قالوه وانما للطرق التي قالوه بها - الترتيب ، الأسلوب ، اللهجة - يميظ السيد سعيد اللثام عن الاستشراق المستتر وراء اختلافاتهم في المنهج . لقد كانت حقيقة السيطرة ، تأكيد سيادة أوربا ، الواقع المائل ، وبدا الشرق ككائن ساقط ، جذاب ، ولكنه مليء بالمخاطر وخاصة الخطر الجنسي .

لم يكن الشرق الحديث الذي وجدوه هو الشرق الحقيقي ، وانما كان صدفة ميتة ، لا ينبت الحياة فيها من جديد الا أورباً : كان السفر الى الشرق نوعاً من الحج ، لا يثمر الا عندما يواجه المسافر الأخطار ويتغلب عليها ، أو عندما يرى أماكن غريبة يدير ظهره لها ويعود الى نفسه مغتنياً . وعلى الرغم من المشابهات بين الموقفين الفرنسي والانكليزي ، فان السيد سعيد مدرك لاختلافهما ، وربما هو يغالي في ذلك . فهو يقول ان الشرق المسلم بالنسبة الى البريطانيين - الذين أقاموا آمنين في الهند - منطقة للسيطرة الممكنة - الموجودة بالقوة - وأما بالنسبة الى الفرنسيين فقد كانوا مسكونين بحساس الخسارة الفادحة . ولكن الفرنسيين في تلك الفترة لم يخسروا الشرق الأوسط على نحو لا يمكن استعادته فيه ، وقد كسبوا لأنفسهم مقاطعة جديدة للخيال في الجزائر .

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر يبدأ طور جديد . فالحكومات الامبريالية تأخذ على عاتقها مسؤوليات جديدة : البريطانيون في مصر ، والفرنسيون في تونس . وبعدها يتم تقسيم الامبراطورية العثمانية - الذي أندر بالحرب العالمية الأولى - في نهايته ، وتسقط المقاطعات الناطقة بالعربية في أيدي البريطانيين والفرنسيين ، وتصبح العلاقة بين العمل العلمي والعمل السياسي أوثق وأكثر تعقيداً ، وتغدو المؤسسات - التي يتم من خلالها بث التقليد الاستشراقي - أكبر وتنظم بشكل أكثر رسمية ، وتوثق صلاتها بالحكومات . وضمن هذا التقليد تنبثق نماذج انسانية جديدة من المستشرقين . وعندها يظهر في الجيل الذي سبق عام ١٩١٤ ، عصر التوسع الجذل المولع بالقتال والوائق من نفسه ، « العميل الامبريالي » الرجل الذي يضع معرفته وأفكاره ، شعوره ودوافعه في خدمة الامبراطورية .

ان السيد سعيد - كدارس لجوزيف كونراد Joseph Conrad - يتعامل باطمئنان مع هذا النوع من الشخصية الغامضة والخفية والتي لا يمكن معرفتها في النهاية ، والباحثة عن خلاص شخصي عن طريق مهمة سرية أو صعبة . والممثل النمطي هو ت ، ا ، لورنس T. E. Lawrence ولدى السيد سعيد أشياء جديدة ونافذة ليقولها عن الدوافع المتشابكة والمعقدة في حياة لورنس النشطة ، وعن السرد والرؤية الشخصية في « أعمدة الحكمة السبعة » Seven Pillars of Wisdom . وكما هو

الشان بالنسبة الى بونا بورت ، فانه بالنسبة الى لورنس - وبواسطة رؤية خيالية للمحمة ، تعاش أولا ثم تكتب ، - « طوى هذه الأمواج من الرجال في يدي » . لقد أعيدت صياغة أعماله اذن في الرؤية التي نجدها في رائعته المصدوعة ، ولكن من الصعب تحديد أين ينتهي السرد وأين تبدأ الرؤية ، وفيما اذا كان غرض لورنس « أن يصنع أمة جديدة ، ويستعيد نفوذا مفقودا » أو يصنع نفسه ويكتشفها . انه يصبح هو نفسه الشرق ، رجل واحد يصبح التاريخ برمته .

وتتغير الرؤية الاستشراقية في السنوات التي تلي عام ١٩١٨ ، فأوربا متحركة بالشرق ، وقوتها النهائية لا يمكن زعزعتها ، وحققا في أن تحكم لم يشكك به الا نادرا . ولكن نهوض شعوب آسيا أصبح يرى تحديا ، ومستشرق العصر هو المستشار الذي - في حين يقبل الواقع النهائي للسيادة الغربية - يحاول أن يري الطريق الى حل سلمي للخلافات ، الى نوع من القبول المتبادل . وقد تتوج التقليدان الانكليزي والفرنسي بشخصيتين اثنتين يبدو أنهما تمثلان عصارتهما : الأول هو الفرنسي لوي ماسينيون Louis Massignon الذي كانت اثارته للكاتب والشهيد الصوفي منصور الحلاج قد تشكلت ليس عن طريق التقليد الأوربي في الدراسات الاسلامية وحسب ، وانما عن طريق حساسية جمالي ووعي كاثوليكي كان مما يميز الفرنسي في ذلك الوقت ؛ والثاني هو الأوسكوتلاندي هاملتون غيب Hamilton Gibb الذي ترجع صلته الى الأصول نفسها مارة بتوماس أرنولد Thomas Arnold وروبرتسون سميث Robertson Smith ، والذي تستدعي رؤيته في استمرارية الجماعة الاسلامية وتطورها عبر التاريخ بسهولة الى الذهن الواعي بالمسؤوليات الامبريالية والمعتنق لرأي بروتستانتى معين للكنيسة .

ان السيد سعيد يكتب عن كليهما باحترام لثقافتهما، ولنوعية فكريهما، ولشجاعتهما، ولكنه يعتقد أنهما قد وقعا في شرك قالب العقل الاستشراقي : فالدراسات الشرقية لم تعد على تقليدها بالنظرة النقدية ، كما كانت العلوم الانسانية تفعل في ذاك الوقت . وكانت الحقيقة النهائية بالنسبة الى ماسينيون وغيب كليهما شيئا ما يسمى « الاسلام » ماثلا الى الأبد ، ومختلفا دائما عن الغرب ، حيث ذابت فردية الكائنات البشرية وفروقات الأزمنة والأمكنة .

لقد توفي ماسينيون عام ١٩٦٢ ، وغيب عام ١٩٧١ ، وبالنسبة الى أولئك الذين عرفوهم منا ، ويمكن لهم أن يقارنوا ذكرياتهم بما يكتبه السيد سعيد عنهما ، فان شكوكا وتساؤلات يمكن أن تثار . ان كتابته قوية ورائعة ( هي أحيانا قوية الى درجة القلقة ، ورائعة أحيانا أخرى الى درجة عدم الوضوح ) ولديه براعة النفاذ الى الارادة الانسانية وتصوير بنية الرؤى الانسانية ، ولكن أليس من الممكن أن يكون هو نفسه قد سقط في الشرك الذي قدمه ، وأنه قد أغرق الفروقات الانسانية في مفهوم مجرد اسمه « الاستشراق » ؟ ما هي منزلة هذا المفهوم ؟ وما هو نوع الصلاحية التي يمكن أن يزعمها للبيانات العامة التي يدلي بها ، بيانات ك : « المستشرقون ليسوا مهتمين بمناقشة الأفراد

ولا قادرين عليها » ، ان المستشرق متميز « بغياب تعاطف مقنع بمعرفة محترفة » .  
 بمعنى ما ، ان الجواب سهل ، فما قام به السيد سعيد هو انشاء نمط نموذجي للمستشرق؛  
 مصنوع من عدد من العناصر المتصلة ببعضها البعض منطقيا ، والبعيدة عن تأثير أية  
 عناصر خارجية أو عارضة . ولكن هذه الأنماط النموذجية ، وكما يعرف كل عالم  
 اجتماع ، ينبغي أن تستخدم بعناية وحذر حتى يمكن لها أن تفسر الوقائع الخاصة ، أو  
 الكائنات البشرية . فليس هنالك من شخص يمثل بشكل كامل نمطا واحدا ، ان كل فرد  
 ينبغي أن يُرى على ضوء عدة أنماط . ان نمطا واحدا من هذه الأنماط يمكن أن يشرحه  
 أكثر من الأنماط الأخرى ، ولكن بعض النكبة الفردية التي لا يمكن أن تعزى سيبقى  
 في النهاية . اننا ، اذ نبدي اعجابنا بأناقة هيكل السيد سعيد ، ينبغي أن نظل نسأل الى  
 أي مدى يمكن أن يخدم كمبدأ في شرح الكائنات البشرية التي يكتب عنها .  
 السياسيون وخدمة المستعمر ؟ على وجه الاجمال ، نعم . ان استشهاداته من اللورد  
 كرومر Lord Cromer ( الحاكم البريطاني لمصر بعد ١٨٨٣ ) وآخرين مناسبة ، وكان  
 بإمكانه أن يجد الكثير مما يبرهن على نقطته : التضاد الواعي « للشرق والغرب »  
 وأفكار ك « الاستبداد الشرقي » و « الركود الشرقي » وفكرة أن الشرقيين لا يفهمون غير  
 لغة القوة ، أعطت بالفعل الانكليز والفرنسيين ضمانا أن حكمهم للشعوب الشرقية كان  
 طبيعيا وصحيحا . والكتّاب الخياليون يمكن أن يفهموا أيضا على أنهم يعملون ضمن هذه  
 الافتراضات ، وخاصة كتاب العصر الرومانتي ، شاتوبريان لامارتين Lamartine فلوبير  
 Flaubert دونرفال De Nerval فشرقهم كان حصيلة الخيال ، ومناهج السيد  
 سعيد المصقولة والدقيقة في التحليل ، أدوات جيدة في تعرية بنية الخيال الأدبي .

ولكنه ، ربما كان لا يسير على أرض راسخة كهذه ، عندما يكتب عن الباحثين .  
 وقد وجدنا أيضا استشهادات مخبرة : قول تيودور نولدكه Theodor Nöldeke  
 ان عمل حياته قد أكد فقط رأيه السيئ في الشعوب الشرقية ، أو زعم غيب Gibb  
 أن العقل العربي غير قادر على التفكير العقلي . ان بعض عناصر « الاستشراق  
 المستتر » كانت ماثلة حقا في عقول غالبية باحثي الاستشراق في الفترة التي يعالجها .  
 واذا لم تكن ازدراء خاصا لهؤلاء الذين يكتبون عنهم ، فقد كانت على الأقل اعتقادات  
 بأنهم فهموا هؤلاء الناس وعرفوا لغاتهم ومعتقداتهم أكثر منهم . ولكننا ينبغي أن  
 نظل نسأل الى أي حد دخل هذا الاعتقاد الى عملهم ورسم اتجاهه وحدوده . وحتى نجيب  
 على هذا فأننا ينبغي أن نمضي الى ما وراء الملاحظة العابرة Obiter dicta الى عملهم  
 الجدي المحترف ، وأن نسأل فيما اذا شكل وشوّه عن طريق هذا التضاد الفج بين الشرق  
 والغرب ، أكثر مما شكل عن طريق مفاهيم أكثر ملاءمة لموضوعها ، والى أي مدى قامت  
 نتاجاته بتثبيت هذا التضاد وتعزيزه .

ليس من الضروري أن تكون ذكيا حتى تصبح باحثا ، وقد كان هناك الكثير من  
 الباحثين الذين لم يظهروا حتى في أكثر أعمالهم وزنا أية براعة باستثناء براعات اللغة ،  
 ولم يستخدموا أية أفكار باستثناء تلك التي كانت معروفة في العصر بشكل عام . وحتى

المستشرقون العظام وجدوا أنفسهم مكرهين بسبب الظروف أن يتحدثوا ويكتبوا في أشياء تتجاوز إلى حد بعيد حدود كفاءاتهم الحقيقية . وقد أفادوا في ذلك من الأفكار الملتقطة من الجو المحيط . وعندما كتب أغلبهم عن السياسة، أو علم الاجتماع، أو الشخصية القومية، أو التاريخ، أو الأدب، فإنهم كتبوا ذلك كهواة على وجه الاجمال .

ان هناك على أي حال خيطا مركزيا واحد من الاهتمام - يسري في نتاج الباحثين الاسلاميين العظام - بأصل جميع أنظمة الفكر التي حاولت الابانة عما يعتقد المسلمون أنه الوحي الذي منح للنوع الانساني من خلال النبي محمد : الحديث، القانون، علم الكلام، والفكر الصوفي . ان قرنا كاملا من الدراسة لهذه الأمور قد أنتج عملا لا يمكن اعتباره مؤدى على نحو سييء . ففي هذا العمل استعمال حذرومتان للمصادر الأصلية، وتجنب للتعميمات التي لا أساس لها، واحساس بالصلات المتبادلة بين الحركات الفكرية والوقائع السياسية والاجتماعية، وشعور بنوعية المفكرين الأفراد كما تفصح عنها أعمالهم أيضا . ان الفرد لم يُستغرق في مفهوم عام في اكتشافات تفصيلية لموالم الفكر الشخصية، كما هو الشأن في دراسة ماسينيون للحلاج، ولاوست Laoust لابن تيمية، وريتير Ritter لفريد الدين العطار . صحيح أن مفهومهما عاما قد كون عملا كهذا : انه الاسلام كنظام فكر، تم النظر اليه من حيث صلتها بالأنظمة السابقة : الاغريقية، المسيحية واليهودية . ولكن هذا المفهوم ليس شكلا آخر لفكرة « الشرق » كما وصفها السيد سعيد . انه الاسلام مرثيا ليس كوجه معكوس من شيء آخر، ولكن ضمن طبيعته الخاصة . ومن المؤكد أن هذا مفهوم ملائم لموضوعه . وفي حدود هذا العمل، فان هؤلاء الذين دعاهم العالم بالمستشرقين ليسوا مرتكبين لما يسميه السيد سعيد « بالاستشراق » .

ان السيد سعيد يعرف أساسا هذا وهويترف « بعمل الكثيرين من الباحثين المخلصين » ولكنه في الحقيقة لا يتعامل معه في كتابه . وربما كان وراء ذلك سببان : أحدهما أنه حذف من مسحه الباحثين الذين كتبوا بالألمانية . وقد فعل ذلك لأنه في ألمانيا « لم تكن لأية شراكة وثيقة بين المستشرقين والمصالح القومية الدائمة والمرسومة في الشرق أن تتطور في أي وقت من الأوقات » . وهذا سبب وجيه اذا ما أعطي شروطه الخاصة في الإشارة، ولكنه قاده الى اهمال شيء هام . وثانيها أن العمل في ميدان التاريخ الديني والثقافي - بسبب كونه مجهدا وصلدا كما هو الشأن فيه - كان في غالبه مملا، وكانت تعوزه الومضة التي يمكن أن تستهوي ذهن السيد سعيد .

ولكن كان هناك رجل مثير ذو عبقرية بينهم . وقد استدعى جميع قوى ذهن سعيد، انه الفرنسي لوي ماسينيون . ان صفحاته عن ماسينيون هي من بين أفضل صفحات الكتاب . ولكنها بمعنى ما، تُري كم هو قليل ذاك الذي يمكن أن يقدمه نمط نموذجي « للمستشرق » من مساعدة في فهمه . ان السيد سعيد يدعي أن ماسينيون « في اتجاه واحد، تبقى أفكاره عن الشرق تماما تقليدية وشرقية Oriental . ولكن الذي يقوله فيه ربما يتركنا مع الانطباع المعاكس . فهو يكتب عن « الذكاء الطاغي، والعبقرية

الصادفة ، وعن جدة عقل ماسينيون » : « الكياسة ، والأسلوب الشخصي ، وعبقريّة الفرد ، ربما تتخطى في النهاية الكوابح السياسية التي تعمل بشكل غير شخصي من خلال التقليد والمحيط القومي » .

ان العالم المسلم ، لم يكن في الحقيقة بالنسبة الى ماسينيون بالمعنى الأكثر عمقا ، منطقة يلاحق فيها بلده أهدافا سياسية . لقد كان مليئا بالرجال والنساء الافراد، المحبوبين، المفهومين ، المدركين في طبيعتهم الفردية ، ولم تكن الصلة بين المسيحية والاسلام صلة وجود وعدم وجود ، ولكنها كانت صلة تبادل واستبدال . وكما قال الباحث الفرنسي جاك بيرك Jacques Berque لأولئك الذين عرفوه ان هنالك أماكن - كنيسة معينة في القاهرة وشارعا معينة - سيكون فيها حاضرا على الدوام .

أسئلة كهذه يشرها أيضا القسم الأخير من الكتاب : « الطور الأخير » . وأطروحة السيد سعيد هي أن تراث الاستشراق الأوربي قد نقل الى الولايات المتحدة ، وتم التعبير عنه بلغة العلوم الاجتماعية ، وتجسيده في مؤسسات ربطت بشكل وثيق بالمصالح والسياسات الأمريكية في الشرق الأوسط ، واستخدمت كسلاح في الصراع بين اسرائيل والفلسطينيين . وثانية . من المحتمل أن يكون محقا فيما يتعلق بالصور الشعبية . فالعرب بالنسبة الى الأفلام والسياسيين وجزء كبير من الصحافة هم الظل الشرقي البغيض ، الغامض ، الجبان . ولكن مرة أخرى ان شكوكا أكبر تثار عندما يكتب عن الباحثين .

ان هذه الشكوك نوعان : أولهما أن السيد سعيد يختار أسلوبا أو لهجة معينة تجعل القارئ مقلقا . ان وعيه بأسلوب الكتاب الآخرين يجعلنا أكثر وعيا بأسلوبه . لقد أخبرنا في بداية الكتاب بطريقة صريحة ومحرّكة بالدافع الشخصي الذي قاد جزئيا الى كتابته . ان السيد سعيد كعربي فلسطيني يعيش في الغرب ، يجد حياته « مثبطة للهمة ... نسيج العنصرية ، والقوالب الثقافية الجاهزة Stereotypes والامبريالية السياسية . وقبضة الأيديولوجية التي تنزع عن الانسان انسانيته ، المسككة بالعربي أو المسلم قوية جدا بالفعل » . ان اللهجة في هذا القسم الأخير هي لهجة المرء الذي يجاهد لخرق هذا النسيج ، ونقده العنيف يمضي في بعض المواضع الى حد اتهام الباحثين بسوء العقيدة . ولئن كانت هذه الاتهامات منظمة ومعززة بالشواهد ، فانها ربما كانت عقبات أمام القول المتعقل . وحتى في ورودها في موضعين أو ثلاثة ، فانها ربما تسبب استياء خطيرا وتقود الى عدم أخذ الكتاب بدرجة الجد التي تنبغي له .

وفيما عدا هذا فان المرء الذي يعمل في حقل الدراسات الشرق - الأوسطية ربما يجد هذا القسم من الكتاب قديما . ان السيد سعيد لا يناقش هنا النتائج الذي يقدم اليوم ويعبر عنه بالمقالات والرسائل العلمية Monographs وكلمات الأساتذة ، وانما أعمال التركيب ، والتي تجسد بطبيعتها نتائج الماضي . ان أفضل العمل الراهن في أوروبا وأمريكا كليهما يبدو أنه قد خرج على الاطار « الاستشراقي » وعاد بالنقد على



نفسه ، وأخصب بأفكار العلوم الانسانية للعصر . والسيد سعيد واع بهذا . فهو يذكر أعمال جاك بيرك ، ومكسيم رودنسون Maxime Rodinson في فرنسا ، وكليفورد غيرتس في أمريكا Clifford Geertz وروجر أوين Roger Owen في انكلترا . ولكنه كان من الممكن أن يمضي الى أبعد من هذا ، ويكتب عن التراث المستمر أو المستعاد للتاريخ الديني في ألمانيا ، وللعمل التاريخي الفرنسي الجديد المنمذج بواسطة الماركسية والمدرسة الملتفة حول مجلة Annales ( المهتمة بالتاريخ الاجتماعي ) . ان مؤرخا للشرق الأوسط في عصرنا الحاضر ، كلود كاهن Claude Cahen لم يذكر مرة واحدة . ان حقل الدراسة هذا يستعيد حيويته - مثل جميع الحقول الأخرى تقريبا - على يد الباحثين الأمريكيين الشباب : المؤرخين ، الأنثروبولوجيين ، ودارسي الأدب - على الرغم مما يقوله عن اهمال الأدب الآن .

ان الكلمة الأخيرة هي : ان عمل اليوم يظل - الى حد بعيد - يعبر عن تصور أوربي وأمريكي للشرق المسلم » ان العالم العربي والاسلامي يظل قوة ثانوية في ميدان انتاج الثقافة والمعرفة والبحث » . هناك بعض الاستثناءات : فليس ثمة مؤرخ عثماني يمكن أن يهمل عمل خليل انالچك Halil Inalcik ومؤرخين أتراك عظام آخرين . ولن يستطيع دارس لشمال افريقيا أن يتجاهل أفكار عبدالله العروي الأصيلية والأساسية . ولكن ، بشكل عام ، يبقى من الصحيح أن دارس العرب والفرس الغربي يظل يعمل ضمن بنية أفكار خلقت من قبل دارسين غربيين آخرين . ان العرب والفرس « كقوة شعر بها وخبرت على نحو حقيقي » ما زالوا غير حاضرين في الثقافة الغربية . ولكن هذا يحتاج الى كتاب آخر يشرح لماذا كان الأمر على هذا النحو .

★ ★ ★